رو ٥، ١-١٠

الأحد الـ ٣ بعد العنصرة

ســـلام التـــبـــريـــر

"قد بُرّرنا بالإيمان. فلنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح"

بولس الرسول هو رسول التبرير، والتبرير بالإيمان. إنه بوقُ الإيمان المسيحيّ والثائرُ على فريسيّة النواميس وعلى الحرفِ الذي يقتل، إنه المبشر بالروح الذي يُحي. وهنا في الرسالة اليوم يكشف لنا بولس عن سرّ التبرير ودروبه.

حياة الإنسان هي شبكة من العلاقات تصله بالناس، وأهم ما لديه هو سلامة هذه العلاقات، وهذا ما يعطيه السلام. ولكن أن تكون هذه العلاقات كلّها في سلام ودون اضطراب ليس بالأمر السهل. تتكرر الاضطرابات وتتعدّد، ومنها ما يصل للصراعات أيضاً، وهكذا يختفي السلام. فيعود الإنسان ليحاول من جديد من أجل بناء السلام. السلام هو المطلب العميق في القلب البشريّ. لذلك جاء يسوع إلهَ السلام.

في كلّ منازعة يحاول الإنسان أن يكون على حقّ، أي أن يستطيع تبرير مواقفه. ويحاول كلٌّ منّا أن يبرهن في علاقاته أنه عادل – على الأقل- أو أيضاً متفضّل ومضحّي، وذلك ليُقِيم برَّه. لكن إذا كان هذا ممكناً مع البشر، فهل هذا ممكن مع الله؟

"لا يتزكّى أمام الله أي حي" (مز ١٤٣، ٢). لأنّه في حالات النـــزاع مع البشر يمكن للواحد أن يلوم الآخر، أما في العلاقة مع الله المحب فكل خلل يعود لخطيئتنا. لذلك إن الميل البشريّ للتبرير مع الله لا يمكنه أن يتحقق إلا عندما يثق الإنسان بالرحمة الإلهيّة وليس بالبرّ الذاتي. لأنّه كما يقول داؤود النبي "إن كنت للآثام راصداً يا رب... من يثبت لأن من عندك الاغتفار" (١٣٠، ٣)

حاولت الأديان عامة، واليهوديّة في العهد القديم حلّ هذه المعضلة. فكانت المحاكمُ تقضي بين الناس وتبرر هذا وتحكم على ذاك. ومع الله، كان لا بدّ من تحديد قانون للعلاقة بينه وبين الإنسان. ولهذا ابتدع الناس الشرائع. وتفنّن الأتقياء في العهد القديم بتفسير الوصايا العشرة وبتحديدها بدقة، لذلك شرّعوا في سبيل حفظ عشرة وصايا الإلهيّة الآلافَ من الوصايا البشريّة. وكان على الإنسان اليهوديّ حفظها، ليحفظ اللهُ معه عهدَه. وحاولت الشريعة تسوية مسألة "التبرير" مع الله. لهذا وقف الفريسيّ مفتخراً بانتصاره وحصوله على تبريره، نعم ومع ضمانات قويّة، فهو يصوم مرتين في الأسبوع مع أن الشريعة كانت قد حددتْ يوماً واحداً للتبرير أمام الله! هكذا لعبت الشريعة دور إعطاء السلام للقلب البشريّ، وأقنعته أن التبرير أمام الله في متناول الإنسان، حين يحفظ وصاياها العديدة. لهذا تقدم ذلك الشاب الغني والتقي إلى المسيح، بعد أن طبّق كلّ الشرائع، وسأله هل هناك أمر بعد يمكنني أن أعمله لأخلص؟ وبعد أن ظن أنه أكمل الشريعة، قال له يسوع إن إكمال الشريعة ليس الكمال، وتحقيق وصايا الشريعة لا يعني حكماً التبرير... "إذا أردت أن تكون كاملاً بِعْ كلَّ ما لك...". يصوّر هذا الشاب الصورة المثاليّة لأتقياء العهد القديم! لكنّه لم يكن كاملاً في نظر يسوع مع أنه أكمل كلّ الشريعة. وهذا يعني أن الله يطلب شيئاً آخر بعدُ، ما بعد كلّ الشرائع! لم يُسّر الله بهذا الشاب المثالي، مع أنه حفظ كلّ الوصايا!

يسوع المسيح كشف عن العلاقة الحقيقيّة التي تبرّر الإنسان. إنه الإنسان الوحيد الذي سمع بالمطلق أن الله سرّ به: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررتُ"، أي أنه قدّم كلّ ما كان اللهُ ينتظره في الإنسان.

لهذا يشدّد بولس الرسول أن الإيمان بيسوع المسيح هو الذي يبرّرنا، وليس الشريعة (رو ٣، ٢٦). ولكن تفسير ذلك يختلف عند البعض. فلقد بالغت الفئات البروتستانتية، كردّة فعل على تركيز الأهميّة في الأعمال عند الكنيسة الكاثوليكية، بالغت في التشديد على الإيمان، وكأنه يعني مجرّد الاعتراف بيسوع رباً: "آمن تخلص"! لكن الإيمان بيسوع ليس هو مجرّد الاعتراف به، وإنّما الاقتداء به. الإيمان بيسوع يعني اتّخاذ طريقة يسوع في التبرير. إن يسوع المسيح يؤهّلنا لنتخّذ الموقف الصحيح في الحياة الذي ينتظره الله منا.

لقد جاء يسوع، وكما صرّح في صلاته الوداعيّة للتلاميذ، لنعرف نحن الآب، أي ليعلّمنا أن نقيم العلاقة مع الله كأب. لما سأله التلاميذ: علمنّا أن نصلي، قال: صلوا هكذا "أبانا الذي في السماوات"! ولو قدّمنا لله الفضائل ولو بذلنا من أجله كلّ ما لنا... فإننا نظلمه ونسيء للعلاقة معه؛ ولا نتبرّر إذا لم

نعرفه أباً. فماذا يفيد حفظ الوصايا كلّها حين نجعل الله قاضياً أو خالقاً... فحسب، ولا نناديه "أباً أيّها الآب"، كما ناداه يسوع؟ وهذا يصح حتّى في العلاقات البشريّة. فلا يعطي الولد حق أهله مهما جازاهم خيراً عندما يكبر، إلا إذا حفظ لهم الشعور أنه ابنهم.

ليست العلاقة مع الله نواميسَ تدينُ أو تبرّر تصرفاتنا. أي ليست العلاقة هي مسألة برّ أو شرّ! ليس المعيار هو مقدار فضائلنا أو هول خطايانا. وهذا لا يعني أن نتساهل بذلك. العلاقة مع الله هي حفظ موقع الأب له في القلب. وبعد ذلك تأتي الفضائل كنتيجة أمام كرامة هذا الموقع. برّنا هو أن الله تبنّانا. وبولس الرسول هو معلم سرّ "التبنّي". لقد صرنا أبناء الله. والابن يُخطئ أحياناً ويُحسن أحياناً أخرى. لقد أخطأ الابن الضال. وكان كلّ شيء في حياته يدينه ولا يبرّره. لقد قسم المعيشة وهذا يدينه، وغادر البيت الأبوي وهذا يدينه، وصرف ماله عبثاً في الخطايا وهذا يدينه، الخ... لكنّه لم يقتل في قلبه كلمة "أب". وهو في عمق الخطايا قال "كم في بيت أبي من أجراء...". وهذا الشعور برّره. لقد عاد إلى أبيه وفي يديه فقط أحكاماً عليه وليس فضائل يفتخر بها. لكنّه لما قال "لست مستحقاً أن أدعى لك ابناً" نال استحقاق التبرير. لا نعدلُ مع الله إلا إذا دعوناه "أباً". لا يُسَّر الله بمقدار فضيلتنا بقدر ما يرضى بنا كأبناء. الخطيئة هي حدث عابر في حياة الابن –الإنسان. لكن إنكار الهوية البشريّة (البنوّة) تُبطل الحقيقة الإلهيّة (الأبوّة) وهذه هي الخطيئة الحقيقيّة.

جاء يسوع ليعلمنا أن نصلي "أبانا" الذي في السماوات. تبريرنا هو أن نحافظ على هديّة "التبنّي". أمّا خطايانا في مسيرة الحياة فتجعلنا نختبر أكثر بالتوبة أبعاد المحبّة الأبوية، وهذه المحبّة تدعونا دائماً للتوبة. لا فضيلة لنا تبررنا إلا الشكر "على محبّة الله التي أُفيضت في قلوبنا... لأنّه إذ كنا بعدُ خطأة مات المسيح عنا". لنصلِّ "أبانا..." وهذه الصلاة ستطهّر قلوبنا وتبررنا رغم عدم استحقاقنا، آمين.